

2016

هزيمة آتينا في الحرب البيلوبونيسية من منظور النخبة المثقفة الآثينية

عبد السلام التايب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [History Commons](#)

Recommended Citation

Dirassat. Vol. 19 :
No. 20 , Article 7.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol19/iss20/7>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in *Dirassat* by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aarj.edu.jo, marah@aarj.edu.jo, u.murad@aarj.edu.jo.

هزيمة آثينا في الحرب البيلوبونيسية من منظور النخبة المثقفة الآثينية

عبد السلام التايب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر- أكادير

مقدمة

لما اندلعت الحرب البيلوبونيسية بين إسبارطا وآثينا في سنة 431 ق.م، كان كل المتبعين لسير العمليات العسكرية من الإغريق يتوقعون قصر أمدها، لكن حتى وإن تخللتها فترات هدنة، فقد استغرقت ما يزيد عن ربع قرن.

وغيّز في هذه الحرب بين مرحلتين أساسيتين: مرحلة أولى (431-421 ق.م)، وتميّزت بعمليات حربية برية وبحرية وبغارات متبادلة بين المتحاربين. وبعد ما نال الإرهاق من الجيوش المتحاربة، اضطرت القوتان المتصارعتان، آثينا وإسبارطا، لعقد "سلم نيسياس" (Nicias) في سنة 421 ق.م الذي استمر مفعوله حتى سنة 415 ق.م، وهو التاريخ الذي قررت فيه آثينا توجيه حملة ضد صقلية، مما أدى إلى تجدد الأحقاد والصراعات.

وخلال المرحلة الثانية من الصراع (415-404 ق.م)، أصبح موقف آثينا الحربي حرجا، حيث انهزمت سنة 413 ق.م في صقلية، كما احتلّ قسم من أراضيها (ديسيلي (Décélie)) من طرف الإسبارطيين، بالإضافة إلى كونها كانت تعاني من أوضاع داخلية ميزها التمزق والشقاق، وهو ما ساعد حلفاؤها على الانفصال عنها تدريجيا. ورغم ما بذلته الدولة الآثينية من مجهود ومقاومة فقد انتهى بها الأمر إلى الانهزام فاضطرت إلى الاستسلام، مما جعل الآثينيين يشعرون بالذنب أمام هول الفاجعة.

وقد جرت العادة في مثل هذه الظروف، أن يلجأ الأدباء الآثينيون إلى التخفيف من إحساس الشعب الآثيني بالذنب عقب الهزائم، حيث سبق لأوريبيد (Euripide) أن دعا في مسرحيته "Suppliants"، إلى ضرورة الفصل

في تحمل المسؤولية بين المواطنين وبين القادة¹. كما عبر الخطيب ليزياس (Lysias) عن نفس الفكرة موجّها كلامه إلى عموم الشعب الآثيني بأنه "في حال ما إذا أقنعكم أحد الخطباء بعدم الدفاع عن قضية عادلة، فلستم أنتم المسؤولون بل أولئك الذين خدعوكم"².

وقد رأى المؤرخ كزينوفون (Xénophon) في موقف الشعب هذا خصوصية النظام الديمقراطي الآثيني³، حيث كان الشعب يضع على الدوام مسؤولية الخطأ، على عاتق الخطيب الذي اقترح نهجا سياسيا معينا⁴، أو على قائد الدولة الذي قام بتنفيذه.

وعموما، ليس على المواطن العادي أن يحاسب على أخطاء لم يشارك في ارتكابها، لذلك لم يكن الضمير الجماعي الآثيني يعبر عن ندمه أو حسرته على خطأ ما. وإنما يتم تبرير هذه الأخطاء كلما تعلق الأمر بقرار اتخذ بإيعاز من أحد الخطباء، ويغيب هذا التبرير كلما تعلق الأمر بنهج سياسي معين من قِبَل بعض القادة، وهي السياسة التي كان يتقمّصها الشعب دون القدرة على تحميل مسؤولية الأخطاء للنظام السياسي، حتى وإن كان الشعب غير منسجم أحيانا مع التوجهات العامة لهذا النظام.

وإذا كانت العادة قد جرت على عدم إثارة مسؤولية الشعب، فإن الخطباء لم يكونوا ليترددوا في التأكيد على براءته⁵، حيث يلقون باللائمة على الخونة تارة،

¹ - Euripide, Suppliants, 879-880, trad. Et notes, par Roux (J), Paris, Les Belles-Lettres, 1970.

² - Lysias, Pour Polystratos, 20. Etab. et trad. Par Bizos (M) et Gernet (L), C.U.F, éd. Belles Lettres, 1924.

³ - Xénophon, République des athéniens, Livre II, 17. Traduction, Notices et notes par Hatzfeld (J), Paris, Belles- Lettres, 1936- 1939..

⁴ - Finley (M.I), Démocratie ancienne et démocratie moderne, Paris, Payot, 1973, p. 26-27:

الذي اعتبر « graphè paranomon » وسيلة في يد الآثينيين للتراجع عن قانون ما، مُحمّلين المسؤولية لمن دفعهم إلى تبنيه.

⁵ - Isocrate, Panégyrique, 137, étab. et trad. Par Mathieu (G) et Brémond (E), Paris, Belles- Lettres, 1938:

وعلى فساد سلوك بعض القادة السياسيين لفترة ما بعد بيريكليس (Périclès) تارة أخرى، والذين تسببوا في خلق فوضى سياسية همت أجهزة الدولة وتدابيرها. ومع ذلك يظهر أنه من الصعب القبول بفكرة أن جيل الحرب البيلوبونيسية لم يكن يشعر بشيء من المسؤولية اتجاه السياسة الحربية والتوسعية للدولة الأثينية، وقد رأى بعض المفكرين الإغريق أمثال توسيديد (Thucydide)، في هذه السياسة، السبب الرئيس للهزيمة التي ترتبت عليها، وإن كان هذا الشعور بالمسؤولية خفياً في النصوص، لكنه تجلى في المجهود الكبير الذي بذله الأثينيون لتبرئة ساحتهم.⁶

وحتى إن أجهد الأثينيون أنفسهم لتبرئة ساحتهم بتخلصهم من فكرة مسؤوليتهم عن الهزيمة، فإنهم لم يفلتوا من أزمة عميقة ومستمرة، تمثلت في الانهيار المفاجئ للإيديولوجية التي انبنت عليها الديمقراطية الإمبريالية الأثينية.⁷ غير أنه سرعان ما تبددت هذه الأزمة بمجرد ما أصبحت غالبية الأثينيين تعتقد أن الهزيمة النهائية كانت محتملة الوقوع بل وحتمية، خاصة وأن فشل الحملة على صقلية في سنة 413 ق.م، سجل بداية تراجع قوة أثينا.⁸

I - مبررات الهزيمة الأثينية في الحرب البيلوبونيسية

1- الخيانة: مبرر مفترض لهزيمة أثينا

لقد كان الهم الشاغل لبال المؤلفين هو تفسير هزيمة أثينا في الحرب البيلوبونيسية، والتي بدت للبعض منهم غير عادية، لأن أثينا كانت فعلاً عند

والموضوعان معا تم دمجهما من طرف: الخطيب ليزياس (Lysias) في خطابه المعنون بـ: «Pour Polystratos، فقرة، 16: حيث أكد موجهها اتهامه للأثينيين "أنتم الذين أخطأتم أكثر منا نحن (الأربعمائة) ". 2: "المجرمون الحقيقيون هم الذين أقنعوكم بأن هذا هو الصواب". وبهذا يكون الشعب على التوالي بريء ومتهم، فيما أن الأربعمائة في كلتا الحالتين أبرياء.

⁶ - في التعبير الصريح عن "البراءة"، نوع من الاعتراف بوجود أسباب تؤدي إلى الشعور بالذنب، فكان الأفضل بالنسبة للأثينيين أن يدافعوا عن أنفسهم بطريقة غير مباشرة لا تترك مجالاً لاتهامهم بل تثبت براءتهم من أية مسؤولية. راجع:

- Ducroi (O), Dire et ne pas dire, Paris, 1972, p. 12.

⁷ - Romilly (J.De), Thucydide et l'impérialisme athénien, La pensée de l'historien et la genèse de l'œuvre, Paris, Les Belles-Lettres, 1947, p. 21-55.

⁸ - توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 65، 12.

اندلاع هذه الحرب في ذروة تفوقها بل أقوى من إسبارطا نفسها، وهو ما أكده كل من توسيديد (Thucydide) وبيريكليس (Périclès)، الذي ركز على الموارد المالية والعسكرية لآثينا⁹ وعلى هيمنتها على البحار¹⁰ بالإضافة إلى اتساع إمبراطوريتها¹¹، لإثبات هذا التفوق.

فقد ظل تفوق آثينا بمنأى عن تقلب الأحوال، فحتى وباء "الطاعون"¹² الذي تفشى في المدينة خلال السنة الثانية من اندلاع الحرب، لم يكن كافياً لجعلها تفقد توازنها وقوتها، كما أظهرها "سلم نيسياس" (Nicias)¹³ كقوة منتصرة¹⁴، بالإضافة إلى أن الإسبارطيين أنفسهم وعلى رأسهم ملكهم أرشيداموس (Archidamos)، قد اعترفوا لها بهذا التفوق¹⁵.

وقد سجل المؤرخ كزينوفون (Xénophon) في بداية الحرب، أن كل ما حققه الآثينيون من إنجازات كان بفضل هيمنتهم على البحار¹⁶، فيما اعتبر ألسيبياد (Alcibiade) في سنة 414 ق.م النظام الديموقراطي الآثيني، الوسيلة التي مكّنت آثينا أن تصبح "أكثر قوة وحرية"¹⁷.

لكن آثينا القوية هاته، ستنهزم أمام المعسكر اللاسيديموني، عكس ما حصل خلال الحروب الميدية¹⁸، إذ لم يمنعها ضعفها النسبي، من إحراز الانتصار على

⁹ - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 13.

¹⁰ - نفسه، الكتاب الثاني، فقرة، 62، 1-2.

¹¹ - نفسه، الكتاب الثاني، فقرة، 64، 3: « Ellynon te oi Ellynes pleistone dy Ergzamen... ».

¹² - Will (Ed), *Le monde grec et l'orient*, T.I (1972), Paris, PUF, p. 319.

¹³ - أُرِمَ "سلم نيسياس" سنة 421 ق.م لوقف الحرب البيلوبونيسية بين آثينا وإسبارطا.

¹⁴ - توسيديد، الكتاب السابع، فقرة، 18، 2.

¹⁵ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 80-81.

¹⁶ - Xénophon, *République des Athéniens*, Livre II, 2-7.

¹⁷ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 89، 6.

¹⁸ - Isocrate, *Sur la paix*, 37, étab. et trad. par Mathieu (G), Paris, Belles- Lettres, 1960.

حيث قابل صراحة بين "مواطني الحروب الميدية" وبين "من قادوا المدينة قبل حرب ديسيلي (Décélie)؛ انظر أيضا:

Eschine, *Ambassade*, 74-77. Établ. et traduit par Martin (V) et Budé (G), éd. Belles-Lettres, Paris, 1927.

الفرس: وبهذه الصورة فاستحضار هذا الانتصار في سياق الهزيمة أمام إسبارطا كان يزيد من الشعور بالخزي والعار، ويدفع بالتالي إلى التهرب من المسؤولية بإثارة موضوع "الخيانة" من طرف كل المؤلفين.

تعرض الأثينيون في الفترة الأولى من الحرب البيلوبونيسية لحالات خيانات ومؤامرات بعض القادة التي لم تضر إلا بالولاء للإمبراطورية، إذ كان موضوع الخيانة أقل افتضاحا. لكن ومع حملة القائد اللاكوني برازيداس (Brasidas) على إقليم آتيكا (Attique)، تضاعفت حالات الخيانة¹⁹، فقد اعتبر هذا الأخير أن تفاهمه مع سكان مدينة طوروني (Toronè) حلفاء أثينا لتحريرهم من التبعية لها، لا يجعل منهم خونة مادام تصرفهم ذاك لا يمس بمصلحة المدينة ولم يكن بمقابل مالي²⁰. وهكذا يكون القائد الإسبارطي قد أحلّ مقاييس ذاتية للتقييم، محل ما تعارف عليه الإغريق حول موضوع التملص من الالتزام بمواثيق التحالف، مبرّرا بذلك كل حركات التمرد ضد "حلف ديلوس" (Ligue de Délos) الذي تزعمته أثينا.

وإذا كانت أثينا لم تعرف خلال هذه الفترة حدوث خيانات إلا ضمن مجالها الإمبراطوري²¹، فإن أحداث Les Mystères و Hérnocopides قد فجرت سلسلة من الصراعات الاجتماعية الحادة²²، كما فتحت الباب لحمى الخيانات الحقيقية²³. وبعد تسرب أخبار عن تواطؤ محتمل لبعض المتآمرين، وعلى رأسهم ألسيبيا (Alcibiade) مع الإسبارطيين²⁴، فقد انتهى الأمر بنفيهم

¹⁹ - Ibid, 81, 2; 103, 5; 104, 4; 114, 3.

²⁰ - Ibid, Livre IV, 114, 3.

²¹ - توسيديد، الكتاب الخامس، فقرة، 2-5، حيث لم يذكر المؤلف هنا سوى سقوط باناكطون (Panacton) في أيدي القوات البيوسية.

²² - توسيديد، الكتاب الرابع، فقرة، 53، 2 وأيضا فقرة، 60، 1-2: أي العنف الناتج عن الضغط وهو العنف الذي "تجلى في تحامل الطيور الثائرة ضد Aristophane, Les Oiseaux, 1583-1585: الطيور الديمقراطية"

²³ - Andocide, Mystères, 36, 45, 59; 2. وأيضا انظر توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 61، 2.

²⁴ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 81، 1-4: بيد لم يأخذ المؤرخ بعين الاعتبار تلك الاتهامات

وانتقالهم إلى معسكر الخصم.²⁵

وتضاعفت حالات الخيانات في السنوات الموالية، إذ تمكن البيوسيون في مستهل عام 411 ق.م من السيطرة على مدينة أوروبوس (Oropos) بتواطؤ سكانها.²⁶ وقبل ذلك بسنة، قدّم فرينيشوس (Phrynichos) مثالا واضحا عن الخيانة إذ استغل موقعه في قيادة الجيش للتواطؤ سرا مع الخصم، فسمح بتسليمه للأسطول الآثيني²⁷، مما فسخ المجال أمام جزء من سكان آثينا قد نعتهم بالديموقراطيين، للتشكيك في وطنية الأوليغارشيين المتطرفين.²⁸

وقد عاش الخطيب الآثيني إيزوقراط (Isocrate) هذه المرحلة بتفاصيلها ليذكر في بداية القرن 4 ق.م²⁹، أسماء أولئك "الذين أرسلوا مَنْ دعا المحاربين الآثينيين في ديسيلي (Décélie) إلى التراجع، وفي اعتقادهم أن الأفضل هو تسليم الوطن للأعداء وإلا فإنهم سيُحرّمون من حقوقهم الوطنية إن هم حاربوا من أجل حرية وطنهم"³⁰. وقد أكد توسيديد (Thucydide) هذه الفكرة حين أشار إلى أن "الأوليغارشيين كانوا على استعداد لتسليم آثينا للأعداء"³¹، وتأكد موقفهم

²⁵ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 88، 9: إذ وجد ألسيبياد نفسه في إسبارطا مع جماعة من الجنود الآثينيين الفارين إلى هناك، انظر أيضا

Lysias, Contre Alcibiade, 32, étab. et trad. par Gernet (L) et Bizos (M), Paris, Belles-Lettres, 1924.

²⁶ - توسيديد، الكتاب الثامن، فقرة، 60: حيث ارتكبت الخيانة من لدن سكان إيريتريا وكذلك من طرف سكان أوروبوس نفسها.

²⁷ - نفسه، الكتاب الثامن، فقرة، 50، 5: حيث أن انتقاد المؤرخ (J) Hatzfelde في مؤلفه: Alcibiade, 1951, p.235-236، لم يستطع تكذيب ما نُسبَ لفرينيشوس من أخبار، فيما أن المؤرخ (E) Delebecque، Thucydide et Alcibiade, Paris, 1965، اجتهد كثيرا لتبرئة ساحة Phrynichos الذي حاول سحب الثقة عن ألسيبياد الذي خان فعلا ولاءه للدولة، ولكن مهما كانت نواياه الخفية فليس هناك دليل مادي يثبت التهمة عليه.

²⁸ - Lycurgue, Contre Léocrate, 112-115, Fragments, édit. F. Durrbach, 1932.

حيث أشار المؤلف إلى أن فرينيشوس قد اتهم بالخيانة، وبعد قتله أصدر قرار ينص على استخراج رفاة من القبر وإبعادها عن حدود دولة المدينة.

²⁹ - حيث حدد (G) Mathieu في تقديمه لخطاب إيزوقراط المعنون بـ « Sur l'attelage »، ص، 48-49، تاريخ هذا الخطاب بين سنتي 397-398، وفيه أيضا تحدث عن خيانة القادة الآثينيين.

³⁰ - Isocrate, Sur l'attelage, 17.

³¹ - توسيديد، الكتاب الثامن، فقرة، 91، 3.

هذا بعد سقوط نظامهم سنة 410 ق.م، إذ تواطأ عدد من قادتهم العسكريين إما مع الطيبين³² أو مع الإسبارطيين، كما توجه البعض الآخر³³ مثل بيزاندر (Pisandre) وأليكسيكليس (Alexiclès) ورفاقهم إلى ديسيلى (Décélie) لخوض الحرب ضد وطنهم الأم³⁴.

وهكذا أصبحت الخيانة واقعا معاشا وحقيقيا، لدرجة أن الأثينيين ضخموا من فظاعة هذا الجرم. فقد أثار أريستوفان (Aristophane) هذه الظاهرة في جل مسرحياته مثل «Acharniens» و«Guêpes» و«Paix»، كما سخر من الدعوات المتكررة من أجل الإخلاص والولاء للديموقراطية³⁵. لكن، وبصرف النظر عن بعض مقاطع مسرحية «Les cavaliers»³⁶، والتي لم تُستعمل فيها بعد لفظة «خيانة» (Prodoto و Prodousou و Prodonai)، فإن الإشارة الوحيدة لورود الخيانة باللفظ جاءت في مقطع مسرحية «Guêpes»، المتعلق بمحاكمة أحد الأغنياء الأثينيين الذين ساعدوا على احتلال جيش العدو لمنطقة طراس³⁷ (Thrace). لكن اتضحت أكثر في المقابل، إشارات «الخيانة» في مسرحيات أريستوفان (Aristophane) المتأخرة مثل: «Les oiseaux» و«Théséphories»، حيث استعمل فعل «Prodonai» بكثرة.

يدفعنا هذا المناخ المشحون بالخيانة، إلى استنتاج أن الهزيمة النهائية لأثينا قد ترتبت بدون شك على تلك التصرفات. ومن ثمة، فقد أدى عجز القيادة الأثينية عن المقاومة في معركة أيكوس بوتاموس (Aigos-Potamos) إلى

³² - توسديد، نفسه، فقرة، 98، ثم أيضا

Xénophon, Helléniques, Livre I, 7, 28 ; وكذلك Lycurgue, Contre Léocrate, 115.

³³ - Lysias, contre Alcibiade, 33-34 ; Pour Polystratos, 28 ; أيضا Lycurgue, Contre Léocrate, 120-121:

إذ تَمَّ تحديد نوعية العقاب الذي سيلحق الفارين من جبهة الحرب.

³⁴ - توسديد، الكتاب الثامن، فقرة، 98.

³⁵ - Aristophane, Les Guêpes, 593. étab. et trad. par Coulon (V) et Hilaire van Daelé, Paris, Belles- Lettres, 1934.

³⁶ - Aristophane, Les Cavaliers, 238, étab. et trad. par Coulon (V) et Hilaire Van Daelé, Paris, Belles- Lettres, 1958.

³⁷ - Aristophane, Les Guêpes, 288-289: « Anyr Pakous akei / Tûn prodonton tapi trakys ».

ارتفاع أصوات الاحتجاج ضدها، فهذا كزينوفون يؤاخذ على القادة العسكريين الآثينيين عدم استفادتهم من نصائح ألسيبياذ (Alcibiade)³⁸ وانتقاصهم لقدرات الخصم وخُذَعِه، مما تسبب في تشتت رجالهم³⁹. كما سجل معظم المؤرخين، أمثال ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) وإيفور (Ephore)، حالة الفوضى التي عمت صفوف القوات الآثينية في السنوات الأخيرة من الحرب البيلوبونيسية. وهو ما جعل الآثينيين يحققون على قادتهم العسكريين، فحسب ديودور فإن خوف القائد الآثيني كونون (Conon) هو ما منعه من الدخول إلى آثينا بعد الهزيمة الأخيرة⁴⁰. وحتى يؤكد ليزياس (Lysias) وجود حالة الخيانة في المعركة النهائية، ذكّرنا، بعد مضي سنوات عنها، بأن هزيمة الآثينيين قد "تحققت بواسطة قطع قليلة من البحرية الإسبارطية"⁴¹. وبما أن كل الأسرى الآثينيين في موقعة أيكوس بوطاموس (Aigos-Potamos) قد تمت تصفيتهم من قِبَلِ الإِسْبارطيين⁴²، فقد توفرت كل الأدلة كي نَصِفَ الهزيمة بأنها تمخضت عن الخيانة. لكن، ورغم ذلك، فإن "أطروحة" عجز القادة العسكريين لا يمكنها أن تُبرِّئ ذمة السياسيين الذين أساءوا اختيارهم في البداية.

وكيفما كان الأمر، فقد رأى الآثينيون في استمرار الحديث عن ظاهرة "الخيانة"، وسيلة لتبرئة ساحتهم، كما سجل ذلك بوزانياس (Pausanias)، الذي أشار بأن "خيانة القادة العسكريين جعلت الآثينيين يرون هزيمتهم غير عادية" (Tou dikaiou)⁴³. كما أشار إيزوقراط (Isocrate) في نفس الصدد، بأن

³⁸ - Xénophon, *Helléniques*, Livre II, 1, 25-26, étab. et trad. par Hatzfeld (J), Paris, Belles-Lettres, 1936.

³⁹ - Ibid, Livre I, 27.

⁴⁰ - Diodore, *Bibliothèque historique*, Livre XIII, Heinmann, Londres, 1948.106, 6: «Conon tyn men, eis Athénas... phobiteis...» في «الرغبة من يمنعه من الرغبة في» لكن مثل هذا الخوف لن يمنعه من الرغبة في «الرغبة من يمنعه من الرغبة في» مواصلة الحرب.

⁴¹ - Lysias, *Défense d'un anonyme accusé de corruption*, 9, étab. et trad. par Gernet (L) et Bizos (M), Paris, Belles-Lettres, 1962.

⁴² - Xénophon, *Helléniques*, Livre II, 1, 31-32 ; انظر أيضا Plutarque, *Lysandre*, 13, 1: الذي قدم رقم 3000 كعدد للأسرى الآثينيين الذين تمت تصفيتهم من طرف الإِسْبارطيين.

⁴³ - Pausanias, Livre X, 9, 11. *Description de l'Attique*, Traduction et notes de Yon (M), Paris, 1972.

إسبارطا "لو احترمت القواعد الأخلاقية للحروب لما انهزمت آثينا"⁴⁴.

ومع ذلك، اكتست فكرة "الخيانة" بُعداً أخطر لما تعلق الأمر بشخصية مرموقة في الجهاز العسكري الآثيني، وهو القائد ألسيباد (Alcibiade). فقد اعتبر الآثينيون فشل حملتهم ضد صقلية سنة 413 ق.م، كمُسبِّب رئيس للهزيمة النهائية في سنة 404 ق.م والتي ارتبطت في نظرهم بخيانتته (ألسيباد)، لأنه هو من شجع الإسبارطيين على التوغل في أراضي آتيكا (Attique) واحتلال إقليم ديسيلي (Décélie)⁴⁵ بل هناك من حمَّله حتى مسؤولية الهزيمة النهائية. فباعثاره كان مقيماً في ضاحية أيكوس بوطاموي (Aigos-Potamos) وعلى صلة بالقائد العام للبحرية الأثينية أديمانطوس (Adeimantos) (وهو من القادة الآثينيين المشبوهين أيضاً)، فأن هذه الهزيمة النهائية كانت بفعل خيانتته أيضاً، ولم يتردد ليزياس (Lysias) في تحميله "مسؤولية مآسي آثينا من جراء هزيمتها"⁴⁶.

وبدون شك، فإن هذه التهمة الأخيرة كانت باطلة، إذ لا نرى من داع يدفع ألسيباد (Alcibiade) إلى الخيانة، مادام شغله الشاغل أضحى هو السماح له بالعودة والدخول إلى وطنه كبطل⁴⁷.

لكن، وحتى وإن كانت تهمة ألسيباد (Alcibiade) بالخيانة غير مبنية على حجج، فإن وضعها أمام أنظار هيئة المحكمة الأثينية كان له أكثر من مغزى، إذ مثلت الإثبات الوحيد الذي كان من شأنه أن يحرر الشعب الآثيني من إحساسه بمسؤولية هزيمة قواته العسكرية في أيكوس بوطاموي سنة 404 ق.م.

2- حالة الشقاق: مبرر رئيس للهزيمة

تبدو التأويلات المقدَّمة من طرف الآثينيين حول خيانة بعض القادة العسكريين سطحية وغير مقنعة لمن يملك فكراً متنبهاً، فحينما استعرض

⁴⁴ - Isocrate, Panégyrique, 139, étab. et trad. par Mathieu (G) et Brémond (E), Paris, Belles-Lettres, 1938.

⁴⁵ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 90 - 91.

⁴⁶ - Lysias, contre Alcibiade, 38-39, étab. et trad. par Gernet (L) et Bizos (M), Paris, Belles-Lettres, 1924.

⁴⁷ - Diodore, op. cit, Livre XIII, 105, 4.

توسيديد (Thucydide) جملة الأخطاء الآثنية بعد وفاة بيريكليس (Périclès) والتي تسببت في الهزيمة⁴⁸، لم يشر إلى مسألة الخيانة، بل ركز على حالة الانقسام الداخلي وانعكاساتها السلبية. ففي نظره، حل محل تفوق شخصية بيريكليس (Périclès)، التنافس بين القادة السياسيين الذين آثروا سُبُل الوصول إلى مركز السلطة بديماغوجيتهم⁴⁹ بَدَلَ رعايتهم لمصالح الشعب، فترتبت عن هذا الصراع بين الوصوليين هزيمة حملة آثينا ضد صقلية.

إضافة إلى أنه وابتداءً من سنة 411 ق.م، لم تقتصر حالة الانقسام هذه على الزعماء السياسيين فحسب، بل شملت كل شرائح المجتمع الآثني أيضاً، مما أعاق مواصلة المقاومة الآثنية⁵⁰، فكانت الحرب الأهلية إذن، أكبر كارثة قوضت أركان دولة المدينة الآثنية.

من ثمة، فإن هذا التفسير لفشل الحملة على صقلية يصبح حدثاً حصل بالمصادفة، وحتى إذا كان توسيديد (Thucydide) قد أدرك العلاقة بين مجريات أحداث الحرب وبين حالة تمزق الآثنيين، فقد ركز أكثر على السياسة الداخلية لآثينا⁵¹ والتي تطرق إليها بتفصيل في سياق أحداث سنة 411 ق.م، فالأمر تعلق إذن بفكرة جديدة⁵² تَبَيَّنَها المؤرخ وقت الهزيمة أو بعدها مباشرة. كما تزامن ظهور هذه الفكرة مع الدعوة لتحقيق "المصالحة الوطنية" (Homonoia) التي لم يتداولها الآثنيون إلا ابتداءً من سنة 411 ق.م لينتشر استعمالها بين المؤلفين فيما بعد⁵³.

إن أهمية هذا التفسير في نهاية القرن 5 ق.م، تزكيه مجموعة من النصوص

⁴⁸ - توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 65، 10-12.

⁴⁹ - نفسه، فقرة، 65، 10.

⁵⁰ - نفسه، فقرة، 65، 12: وخاصة اضطرابات سنة 411 ق.م.

⁵¹ - لم يثر توسيديد القضايا المرفوعة ضد بيريكليس ومقربيه ولا الصراعات التي أدت إلى نفي هيبربولوس (Hyperbolos).

⁵² - Finley (J.H), Thucydides, Ann Arbor, 1963, p. 297:

حيث ذكر أن توسيديد "لو عاش مدة أطول لمعالجة المراحل الأخيرة من الحرب، لأفاض بالتأكيد في نقاش جذور هذا الشقاق والانقسام".

⁵³ - ابتداءً من تاريخ تأسيس، الذي هو تاريخ تأسيس حكومة ديموقراطية معتدلة يُفترض أن تجسد مفهوم المصالحة الوطنية.

الأدبية الأخرى: فلما أرشدت ليزيسترطا (Lysistrata)، وهي من شخصيات مسرحية أريستوفان (Aristophane)، مرافقيها إلى سلوك الاستقامة والتعاضد "لأن أحد العرافة وَعَدَنَا بالنصر إن لم ننقسم (Stasiasoumen)"⁵⁴، فلأن الأمر يدعو إلى تجنب الحرب الأهلية التي كان الجميع يخشى عواقبها الوخيمة. كما استنكر أريستوفان (Aristophane) في سنة 405 ق.م "حالة الشقاق والعداء (Ektran Stasin)"⁵⁵ التي كانت متفشية بين الأثينيين، فدعا إلى تحقيق الوحدة الوطنية لإنقاذ المدينة⁵⁶. فيما اعتبر ليزياس (Lysias) في سنة 400 ق.م، بأن الضغط الذي أعقب سقوط نظام الأربعمئة الأوليغارشي، هو الذي "أغرق المدينة في دوامة الشقاق وأفزع المصائب وسبّب الهزيمة"⁵⁷.

وعموماً، يمكننا تفسير شيوع هذا التصور المتصل بحالة الشقاق، بكونه ساعد الأثينيين على تبرير ما حدث، بأنهم لم يهزموا بسبب ضربات خصومهم، بل نتيجة للصراع الداخلي الذي عانوا منه. وقد دفع أفلاطون بهذه الفكرة نحو التجريد في رثاء تضمنه تأليفه «Ménexène»: فما دامت أثينا لم تنهزم فعلاً أمام الخصوم، فقد خرجت إذن منتصرة من الحرب، فهناً محاربي معركة أرجينوس (Arginusus) قائلاً: "فبفضيلتكم (arétè) انتصرنا ليس فقط في المعركة البحرية، ولكن أيضاً في مراحل الحرب التالية"⁵⁸.

ورغم ما تضمنه هذا النص من مبالغة، فإنه يبرز القيمة التبريرية لموضوع الشقاق والانقسام. وهي نفس الفكرة التي تناولها ليزياس (Lysias) في رثائه، ففي نظره أن انتصار ديموقراطي سنة 403 ق.م سمح بتبرير هزيمة سنة 405

⁵⁴ - Aristophane, Lysistrata, 767-768, étab. et trad. par Coulon (V) et Hilaire Van Daelé, Paris, Belles- Lettres, 1958.

⁵⁵ - Id, Grenouilles, 359, étab. et trad. Par Coulon (V) et Hilaire Van Daelé, Paris, Belles- Lettres, 1954.

⁵⁶ - Ibid, 686-705.

⁵⁷ - Lysias, Pour un citoyen accusé de menées contre la démocratie, 26: «Eis staseis kai tas meguistas sumphoras».

⁵⁸ - Platon, Ménexène, 243 d, étab. et trad. par Méridier (L), Paris, Belles- Lettres, 1931. انظر أيضاً

- Loraux (N), « Socrate contrepoison de l'oraison funèbre », Antiquité Classique 43 (1974), p. 172-211.

ق.م، ذلك "أن عظمة ونبل تصرفاتهم تدل على أن مآسيهم السابقة لم تصدر عن جبنهم ولا عن جدارة أعدائهم"⁵⁹، وينطوي هذا الكلام على تبرئة المواطنين الآثيين من مسؤولية الهزيمة، حيث "ليس سهلا عليهم إحراز الانتصار إلا إذا حافظوا على وحدتهم وتضامنهم"⁶⁰.

ومع ذلك، لم تكن فكرة "الشقاق" لتخفف عن الآثيين في الماضي شيئا من مسؤوليتهم، ولم يكن بوسعهم تبرئة ساحتهم حين كان يُثار موضوع "الانقسام والتناحر" الذي كانوا هم سببا فيه. لكنها في المقابل، كانت كافية ليتشبع الآثيون في نهاية القرن 5 ق.م بروحهم الوطنية وهم فخورون بتضامنهم من جديد. فممكن تداول النقاش حول مواضيع "الخيانة" و"الشقاق"، المواطن الآثيني من إحياء حبه لوطنه ومواطنيه، ومن الشعور بأن الهزيمة كانت غير طبيعية، بل كان بالإمكان تلافيها.

3- "سوء الحظ": مبرر إضافي للهزيمة

دخل موضوع "الشقاق" إذن ضمن استعمال تبريري، فأضحى تداول لفظة "مأساة" (Sumphora) مألوفا عند الحديث عن أية هزيمة عسكرية⁶¹، ليصبح أكثر شيوعا عند تناول أخطر هزيمة آثينية⁶². فقد غدا استعمال لفظة "مأساة" (y Sumphora) كافيا للإشارة إلى معركة أيكوس بوطاموي (Aigos-Potamos). وغالبا ما استعملت في صيغة الجمع، إذ ذكر ليزياس (Lysias) "مآسي الشعب"⁶³ و"مآسي الدولة"⁶⁴ و"تلك التي حلت بدولة المدينة"⁶⁵ و"مآسيكم"⁶⁶، كما استعملها بشكل عام وبدون تحديد: "المآسي"⁶⁷ و"مآسي

⁵⁹ - Lysias, Epitaphios, 65. Étab. Trad. Par Gernet (L) et Bizos (M), Paris, Belles-Lettres, 1924.

⁶⁰ - Ibid, 65.

⁶¹ - توسديد، الكتاب الثالث، فقرة، 114، وأيضا الكتاب السابع، فقرة، 18، 2، وكذلك في الكتاب الثامن، فقرة، 27، 2.

⁶² - Lysias, Epitaphios, 58: «Sumphoras».

⁶³ - Id, Contre Andocide, 41: «Ton diimousion Sumphoron».

⁶⁴ - Id, Pour Mantithéos, 10: «Dia tas sumphoras tis poléos» ; وأيضا Sur la confiscation des biens du frère de Nicias, 25: «ai tis poléos sumphorai».

⁶⁵ - Lysias, Sur l'Olivier sacré, 6: «Ton tin poléi guiguéniménon sumphoron».

⁶⁶ - Id, contre Alcibiade, 16: «guéguonos sumphoras» ; وأيضا contre Philon, 17.

الماضي⁶⁸.

وقد سمح استعمال لفظة "المأساة" في الصيغ المختلفة بالمزج بين هزيمة أثينا البحرية وعواقبها الوخيمة. فقد أشار ليزياس (Lysias) إلى وصول القائد الإسبارطي ليزاندر (Lysandre) وسفنه الحربية وضياع الأسطول الآثيني وتدمير الأسوار واستيلاء "الطغاة الثلاثون" على مقاليد السلطة، ليخلص بأن "كل الآلام والمآسي قد حلت بالمدينة"⁶⁹.

ويتلاءم استعمال هذه اللفظة كذلك مع ما ترتب على مسؤولية ألسيبباد (Alcibiade) في هزيمة أثينا في معركة "أيكوس بوتاموي" (Aigos-Potamos) من استعباد الأعداء لعدد كبير من الآثينيين⁷⁰ ومن تدمير أسوار المدينة وأخيرا من استحواذ حكومة "الطغاة الثلاثون" على مقاليد الحكم. ليعيد في نفس السياق توظيف تزواج هذه العناصر المختلفة خاصة في الخطابات الملقاة على مسامع هيئة المحكمة الشعبية، مركزا بالخصوص على ما اقترفته حكومة "الطغاة الثلاثون"⁷¹ من ظلم وجور من قبيل الحرب⁷² والقتل⁷³ والنفي⁷⁴.

وبنفس التناول أذمجت كل هذه المعانات عند مؤلفين آخرين، فقد ذكّر الخطيب أندوسيد (Andocide) الآثينيين بعهد المآسي والآلام بالقول: "لما تم الاتفاق على الهدنة مع اللاسيديمونيين ودمرت أسوار مدينتكم واستقبلتم المنفيين من معارضيتكم واحتل "الطغاة الثلاثون" مركز السلطة تذكركم آلامكم

⁶⁷ - id, Epitaphios, 62: «Tais sumphorais» ; أيضا contre la confiscation des biens du frère de Nicias, 25: «Ton sumphoron».

⁶⁸ - Id, Contre la confiscation des biens..., 18: «Ton guiguéniménon sumphoron».

⁶⁹ - Ibid, 48.

⁷⁰ - Id, Contre Alcibiade, 39: ألسيبباد نفسه

⁷¹ - Lysias, Pour un citoyen accusé de mener contre la démocratie, 15 :

مذكرا بدوره بعهد "الطغاة الثلاثون"، حيث صرح المتهم بأن "المدينة إذا كانت قد عاشت فترة مأساوية، فلأن كل المواطنين كانوا يتصرفون حينها بمثل تصرفه".

⁷² - Id, Contre Eratosthène, 92-93.

⁷³ - Id, Contre Agoratos, 43-45.

⁷⁴ - Ibid, 47 ; الرجوع أيضا إلى Isocrate, Sur l'Attelage, 12.

الماضية⁷⁵. كما استخلص بأن "استئناف الحرب بعد "سلم نيسياس" (Paix de Nicias) ترتبت عليه أضرار جمة⁷⁶، من قبيل تدمير الأسوار وتسليم الأسطول البحري للعدو اللاسيديموني وأيضاً فتح باب عودة المنفيين إلى المدينة.

بيد أن إيزوقراط (Isocrate) ولكي يذكر الآثينيين بالماضي الماضية، استحضر الانقلابين السياسيين ضد النظام الديموقراطي⁷⁷، موجهاً اتهامه إلى الأوليغارشيين الذين "سلموا قواتنا للأعداء ودمروا أسوار مدينتنا وأبادوا وبدون محاكمة أزيد من ألف وخمسمائة مواطن⁷⁸، مضيفاً "حينما فقدنا قواتنا البحرية وعمت الآلام مدينتنا كان الموالون للأوليغارشية مستعدين لتدمير الأسوار وتحمل حالة الاستعباد⁷⁹".

وبتوخي المؤلفين عدم دقة دلالة اللفظة ضمن إنتاجهم، مكنت فكرة "المأساة" من التخفيف من صدمة الهزيمة، وذلك بالتطرق إلى وقائع أخرى جانبية، بدل الحديث عن موضوع فاجعة ضياع الإمبراطورية الآثينية، كما سمحت بتبرئة جانب عامة الآثينيين وذلك على مستويين: فقد دلت من جهة على أن الهزيمة حصلت بمحض الصدفة، وأن الآثينيين كانوا من ضحاياها من جهة ثانية. وهو ما أكدته بعض السفراء الإسبارطيون في سنة 425 ق.م بالقول "بأن انتصاراً قد حققوه بالصدفة وبالتالي لم يكن مستحقاً"⁸⁰، وهو ما سمح لإيزوقراط (Isocrate) بالتقليل من قيمة انتصار القائد الإسبارطي ليزاندر (Lysandre) حيث يقول: "لا يجب اعتبار من أحرز نصراً بمحض الصدفة مثل ليزاندر (Lysandre) كأفضل قائد عسكري، ولكن هذه الصفة تناسب القائد الصعب المراس والشجاع مثل تيموطي⁸¹ (Timothé)".

يجوز القول إذن، بأن المفهوم الجديد للفظـة "مآسي" سمح للمنهمز بالحفاظ

⁷⁵ - Andocide, Les Mystères, 80, étab. et trad. par Dalmeyda (G), Paris, Belles-Lettres, 1930.

⁷⁶ - Id, Sur La paix, 31.

⁷⁷ - Isocrate, Contre Lochitès, 10.

⁷⁸ - Ibid, 11.

⁷⁹ - Id, Aréopagitique, 64, étab. et trad. Par Mathieu (G), Paris, Belles-Lettres, 1960.

⁸⁰ - توسيديد، الكتاب الرابع، فقرة، 17، 4-18.

⁸¹ - Isocrate, Sur l'Echange, 128.

على فضيلته وقيمه المثلى، كما وُظف بشكل متميز إبان حرب كورانتا، لكن ما كان ليكون له معنى لولا قبول المواطنين الأثينيين للقيمة التبريرية لفكرة "المآسي".

ومن جهته، أعطى المؤرخ توسيديد (Thucydide) أهمية كبرى لمفهوم "الصدفة" (Tuchè) التي تمثل حدود التنبؤ البشري⁸²، فكل ما يحصل بعكس التنبؤات المنطقية يدخل في حقل "الصدفة"، التي تتدخل في كل معركة⁸³ كما في سير أحداث حرب طويلة الأمد⁸⁴. فيما لم يستثن توسيديد (Thucydide) فعل القدر على الأقل بالنسبة للهزيمة النهائية، مادام الانتصار الإسبارطي أضحى منذ نكبة أثينا في صقلية حتمياً⁸⁵، وما يؤكد هذا أسف نيسياس على سوء حظ القوات الأثينية في سواحل صقلية⁸⁶. ويكون الأمر بدون جدوى لو اعتقد الأثينيون بمسؤولية القدر فيها مادام المسؤولون عنها هم أولئك الذين أساؤوا توظيف عامل "الصدفة"، وإن اعتمدوا عليها كلية، فذلك يعني اعترافاً صريحاً منهم بألا أمل لهم في النصر، مما يثبت للفرق العسكرية، خاصة فرق نيسياس (Nicias) المرتبكة⁸⁷، أن الفشل وشيك لا محالة. فيما لا يجب إقصاء هذا العامل نهائياً، لأن بإمكانه أن يعيق أفضل المخططات الحربية.

كما جعل توسيديد (Thucydide) من لزوم توخي الحيطة أهم عناصر نجاح الصدفة، خاصة حينما يتعلق الأمر بإمبراطورية قوية وقابلة للتصدع في أية لحظة كإمبراطورية أثينا. وقد تَمَثَّل المؤرخ في هذا السياق المبدأ الأساسي الذي اعتمده بيريكليس (Périclès)⁸⁸، وصار عليه في ما بعد نيسياس⁸⁹، وهو

⁸² - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 41، 1: (خطاب بيريكليس).

⁸³ - تحدث بيريكليس في "رثائه"، عن اللحظة القصيرة التي يتحقق فيها قدر الموت، انظر توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 42.

⁸⁴ - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 78، 1-2: حيث تناول الأثينيون في خطابهم بإسبارطا صدف الحروب، خاصة تلك التي يطول أمدّها.

⁸⁵ - نفسه، الكتاب الثاني، فقرة، 65، 12.

⁸⁶ - نفسه، الكتاب السابع، فقرة، 77، 2-4: حيث كان نيسياس يأمل في أن يغير الحظ موقعه ثانية لصالح الأثينيين.

⁸⁷ - نفسه، الكتاب، السابع، فقرة، 77، 3-4، ثم الفقرة، 67، 4-68.

⁸⁸ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 144، 1، وأيضاً الكتاب الثاني، فقرة، 65، 7.

⁸⁹ - نفسه، الكتاب السادس، فقرة، 10، 5.

تجنب أقصى ما يمكن من الأخطار⁹⁰. فالحملة على صقلية في نظر نيسياس (Nicias) كانت مرفوضة ليس لأنها فشلت منذ البداية، بل لأنها ستجر معها تهديدات كان من الممكن تفاديها⁹¹. وقد بين نيسياس حدود حظوظه في نجاح الحملة لشدة حيطته، إذ كان يفضل أن تتوفر لديه كل العناصر الكفيلة بتحقيق الانتصار، وكان "يؤمن بأن ذلك لن يتحقق إلا بتجنب الأخطار والتهديدات"⁹².

غير أن التحلي بالحذر وحده لم يكن كافيا عند توسيديد (Thucydide)، إذ يستلزم تحقيق النصر معرفة الاستفادة من الفرص المتاحة. فقد أورد قول سفراء إسبارطا بعد انتصار قواتهم في بيلوس (Pylos)، بأن "الرجال الحكماء (Andron Suphronon) هم الذين يتجنبون الفشل ولا يندفعون أمام النجاح"⁹³. ولكن، إذا كان الآثينيون لم يستفيدوا من نجاحاتهم، فقد تبدو هذه الأخيرة وكأنها ناتجة عن حسن الحظ ليس إلا⁹⁴. وهنا لا يمكن لوم فعل "الصدفة"، ولكن لوم أولئك الذين لم يستفيدوا من الانتصار في موقعتي Arginuses و Sphactérie، أو من ركبو الأخطار الجمة لما وجهوا الحملة ضد صقلية.

وفي المقابل كان بيريكليس (Périclès) في نظر توسيديد (Thucydide) على حق حين قبلَ الدخول في الحرب⁹⁵ في سنة 431 ق.م، لأن ميزان القوة كان يميل لصالح آثينا، وهو ما أكده أرشيداموس (Archidamos) نفسه⁹⁶. وبالنظر إلى هذا التفوق مثلت هزيمة آثينا مأساة غير منتظرة حوّلت المسؤولين عنها إلى ضحايا.

⁹⁰ - نفسه، الكتاب الثاني، فقرة، 24: فقد وضع بيريكليس احتياطا من الأموال والسفن الحربية جانبا حتى يتم استجماع قوة آثينا في حالة انهزامها.

⁹¹ - حيث استنكر توسيديد في نفس الوقت، تصرف ألسبياد الذي قرر تنظيم الحملة، وأيضا خصومه الذين تسببوا في فشلها.

⁹² - توسيديد، الكتاب، الخامس، فقرة، 16، 1.

⁹³ - نفسه، الكتاب الرابع، فقرة، 18، 4.

⁹⁴ - نفسه، الكتاب الخامس، فقرة، 75، 3.

⁹⁵ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 140 - 144: وفيها تبرير بيريكليس للدخول في الحرب.

- وأيضا في الكتاب الثاني، فقرة، 13، 2-9، وفيها جرد لكل الموارد المادية التي توفرت لآثينا آنذاك.

⁹⁶ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 80، 2-6.

ويظهر هذا الموقف بوضوح في مسرحية "أوديب في كولون" للمسرحي صوفوكل (Sophocle)، إذ يُعاقب المجرم نفسه بنفسه⁹⁷، وهو واع بارتكابه لأفعال قذرة، ليظهر بعد ذلك في صورة إنسان بئس وبريء ما دام أنه كان بدون إرادة⁹⁸ ولا إدراك⁹⁹، فارتكب الجرائم ودنس الحرمات، فأصبح كل هذا بمثابة مآسي فُرِضت على أوديب (Oeudipe) كعقاب له¹⁰⁰.

لقد عكست هذه المسرحية في الواقع، مشاعر الأثينيين الذين أدركوا أنهم - كما أوديب - صنائع القدر، وبالتالي هم مجرد ضحايا أكثر منهم مسؤولين عن الوضعية المزرية التي آلت إليها حالة أثينا بعد الحرب، وهو ما دفع بآريستوفان (Aristophane) في مسرحيته «Grenouilles»، إلى حث مواطنيه على العفو عن جميع من أخطأوا في أحداث سنة 411 ق.م¹⁰¹، ولم يتردد ليزياس (Lysias) من جهته في إظهار سكان أثينا كضحايا لنظام "الطغاة الثلاثون"، لأن "ما أُجبروا على اقترافه من محرمات، كان كله مأس عانوا من ويلاتها"¹⁰².

هكذا أفلح الأدباء الأثينيون بمختلف السبل في تبرئة ساحة المواطنين الأثينيين من مسؤولية الهزيمة، التي وإن كانت ناتجة عن الخيانة فإنها لم تكن عادية، والمسؤولون الوحيدون عنها هم الخونة الذين تسببوا في ضياع الإمبراطورية. أما إذا كانت هذه الهزيمة قد نتجت عن الانقسام والشقاق، فإن الأثينيين قد نالوا عقابهم قبل الانهزام أمام الخصم، فخَفَّ وفُخَّ المسؤولية الماضية في أنفسهم بتحقيق المصالحة الآنية، أما إذا كانت هذه الهزيمة قد نجمت عن محض الصدفة، فقد اعتُبر الجميع ضحاياها وليسوا مسؤولين عنها.

⁹⁷ - Sophocle, Oeudipe à Colonne, trad. Et noté par Pignarre (R), éd. G.F, 1964, 438-439:

حيث أدرك أوديب أن قسوته تضمنت عقابا شديدا له

⁹⁸ - Ibid, 239-240.

⁹⁹ - Ibid, 273.

¹⁰⁰ - Ibid, 962-964: (Créon) حيث يطعن أوديب في اتهامات كليون (Créon)

¹⁰¹ - Aristophane, Grenouilles, 689-691; للتوسع الإطلاع على - Taillardat (J), Les Images d'Aristophane, Paris, 1965.

¹⁰² - Lysias, Contre Eratosthènes, 92.

II- مسؤوليات الحرب

لقد أصبح الآثينيون ملزمين بعد هزيمتهم سنة 404 ق.م، بتبرير دخولهم إلى الحرب البيلوبونيسية، التي بدت وكأنها خطأ سياسي، بالنظر إلى عواقبها الكارثية بالنسبة لآثينا وجزء كبير من العالم الإغريقي¹⁰³. ومعلوم أن آثينا كانت قبل هذه الحرب تفرض نفوذها على هذا العالم، غير أن التحول الطارئ بعد هذا التاريخ جعل الهيمنة من نصيب إسبارطا.

كان من بين الآثينيين من استنكر هذه الحرب، من زاوية أخلاقية على الأقل: فإذا كانت الحرب قد ظهرت خلال القرن 5 ق.م كتصرف عادي، إذا ما احترم المتحاربون المقدسات والقيم الأخلاقية، فقد مال مؤلفوا القرن 4 ق.م إلى اعتبار حالة السلم الدائم بين الإغريق كحالة طبيعية يجب الحفاظ عليها¹⁰⁴.

وبما أن الحرب البيلوبونيسية قد وقعت بالفعل، فإن الإشكال الذي أصبح مطروحا هو تحديد المسؤول الفعلي على نشوبها، فالأمر لا يتعلق إذن، باعتبار آثينا هي المسؤولة الرئيسة عن اندلاع هذه الحرب، فهذا ما لا شك فيه، ولكن الأهم يبقى هو البحث عن الأسباب العميقة التي انتهى إليها المفكرون الآثينيون في شأن اندلاعها.

1- مسؤولية بيريكليس

لقد سخر أريستوفان (Aristophane)¹⁰⁵ وأمام الجمهور الآثيني، من بيريكليس (Périclès) على حثه الآثينيين على إعلان الحرب بواسطة "مرسومه الميغاري"، حين ربط قرار رجل الدولة بحادثة تافهة (اختطاف ثلاث بنات هوى)، غير أنه لم يكن ليجازف بتحميل بيريكليس مسؤولية إعلان الحرب لو سبق للآثينيين توجيه الاتهام للإسبارطيين.

لكن بالنسبة لمؤلفين آخرين، فإن بيريكليس (Périclès) قد أعلن الحرب حتى يتهرب من المحاسبة عن تبذير أموال خزينة حلف ديلوس، وهذا الرأي

¹⁰³ - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 23، 2-1.

¹⁰⁴ - Aristophane, La paix, 1098 ; Lysistrata, 1133-1134.

¹⁰⁵ - وذلك في مسرحيته «Acharniens»، 539-524، سنة 425 ق.م، وكذا في مسرحيته «Paix»، 605-614، سنة 521 ق.م.

سانده كل من إيفور (Ephore)¹⁰⁶ وديودور الصقلي (Diodore)¹⁰⁷. فيما دحض توسيديد كل هذه الادعاءات واعتبرها باطلة¹⁰⁸، وقد كادت تلك الاتهامات أن تكون بدون تأثير¹⁰⁹ لو لم يحاول الآثينيون قبول فكرة مسؤولية دولتهم في اندلاع الحرب¹¹⁰.

2- مسؤولية الإسبارطيين

إن ما يثير انتباهنا في موقف الآثينيين هو اتهامهم للإسبارطيين بنقض اتفاقيات السلم المبرمة معهم، فيما نجد في المقابل موقفا مناقضا لذلك في المعسكر الإسبارطي، فقد أوصى الملك أرشيداموس (Archidamos) الإسبارطيين في سنة 432 ق.م، بالأب يبادروا بالعدوان¹¹¹، لما في ذلك من خرق للقوانين¹¹². وحتى يتجاوزوا حيرتهم، عرض عليهم عدم إعلان الحرب وأن "يعلموا بأن المواثيق قد تم خرقها فعلا من طرف الآثينيين"¹¹³، وهو بمثابة إعلان صريح للحرب.

ومع ذلك لا يمكن لأي إغريقي الوثوق بهذه الخدعة، فقد لمسنا لغة ساخرة في الإنذار الذي قدمته آخر سفارة إسبارطية، فبدل أن تهدد بالحرب أكدت على أن تحقيق السلم ممكن، إذا ما احترم الآثينيون سيادة المدن الإغريقية

¹⁰⁶ - Ephore, F. G. H 70, 196.

¹⁰⁷ - Diodore, Bibliothèque historique, Livre XII, 38, 204, étab. et trad. par Casevitz (M), Paris, Belles- Lettres, 1972.

¹⁰⁸ - توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 65، 8، الإطلاع أيضا على: Romilly (J. DE), «L'optimisme de Thucydide et le jugement de l'historien sur Périclès (Thucydide, Livre II, 65) », Revue des études grecques 8, (1965), p. 557-575.

¹⁰⁹ - Sainte Croix (G. E. M. de), Les origines de la guerre du Péloponnèse, Paris, 1972, p. 236-237.

¹¹⁰ - توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 59، 2: حيث أخذ الآثينيون على بيريكليس إقناعهم بضرورة الدخول في الحرب.

¹¹¹ - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 80، 3.

¹¹² - نفسه، فقرة، 85، 2: إذ أوصى أرشيداموس مواطنيه "بالثريت ما دام الآثينيون قد قبلوا مسألة التحكيم"

¹¹³ - نفسه، فقرة، 87، 2.

وحريتها¹¹⁴. وأن معظم الإغريق "دخلوا الحرب دون معرفة أي المعسكرين بدأ العدوان"¹¹⁵.

ففي خريف سنة 413-414 ق.م اعترف الإسبارطيون صراحة، حينما كانوا يستعدون لغزو إقليم آتيكا من جديد، بالأخطاء التي ارتكبوها أثناء الحرب البيلوبونيسية الأولى¹¹⁶، مبينين في نفس الوقت بأن ذلك كان ردا على ما تعرضوا له من نكبات وبؤس.

لكن إذا كان توسيديد قد وقف في القسم الثاني من مؤلفه، عند هذه النماذج من مسؤوليات الحرب، فإنه لم يوردها إلا من وجهة نظر لاسيديمونية. فيما أعتبر أن الإسبارطيين هم الذين كانوا في حيرة وندم وليس الآثينيين الذين لم يُلْقُوا في كل خطاباتهم بتبعات الحرب على الخصوم.

وفي نفس السياق لا يمكننا الاقتناع بوجهة نظر بعض المؤرخين مثل سانت كروا (Sainte Croix)، والتي اعتبرت أن توسيديد (Thucydide) رأى في الإسبارطيين معتدين على الحرمات والحدود، وكأن الأمر كان متوقفا في سنة 432 ق.م على قرار إسبارطا التي كانت لها دوافعها الخاصة لشن الحرب¹¹⁷. فيما وضع توسيديد (Thucydide) السبب الأول في قيام الحرب في التوسع الاستعماري الآثيني الذي ضايق الإغريق وجعل اندلاع الحرب أمرا حتميا¹¹⁸. وبذلك فقد منح للآثينيين مخرجا مناسبا حين ركز كثيرا على فكرة "حتمية الحرب البيلوبونيسية"، فقلل بذلك من أهمية بعض الحوادث الجانية من قبيل قضية كورسير (Corcyre) وبوتيدي (Potidée) وميغارا (Mégare)، حيث كان القرار يتوقف فيها على الآثينيين.

3- أحداث الحرب

كانت لحظة اتخاذ قرار الحرب حاسمة، ولم يتردد بعض المؤلفين في اعتبار

¹¹⁴ - نفسه، فقرة، 139، 3.

¹¹⁵ - نفسه، الكتاب الرابع، فقرة، 20، 2.

¹¹⁶ - نفسه، الكتاب السابع، فقرة، 18، 2-3.

¹¹⁷ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 23، 6.

¹¹⁸ - نفسه، فقرة، 23، 6: حيث لا يمكننا التسليم بما قالته St Croix في مؤلفها المذكور آنفا، ص، 60-

الحوادث السابقة لها بمثابة إعلان لها، خاصة لما قررت أثينا دعم كورسير (Corcyre) ضد كورانتا (Corinthe) سنة 433 ق.م، إذ كان ذلك القرار خطيرا مما دفع بالكورانتين إلى دعوة الأثينيين إلى عدم الاندفاع، حتى لا يجدوا أنفسهم في حرب ضدهم¹¹⁹ وألا يثيروا عداؤهم بشكل مكشوف¹²⁰.

وقد استعرض توسيديد (Thucydide) في هذا الصدد خطابين متميزين لكل من الكورسيريين والكورانتين، إذ ركز الأولون على جانب المصلحة¹²¹، فيما انصب اهتمام الأخيرين على ضرورة احترام العدالة¹²². وحتى إذا اعتبرنا موقف الكورسيريين يتماشى ومصلحة الأثينيين، فقد اعترف توسيديد (Thucydide) بأن اندلاع الحرب أصبح لا مفر منه حتى وإن لم تقرر أثينا مساعدة كورسير (Corcyre)، وما يؤكد ذلك قوله: "مهما كان الأمر فإن الأثينيين سيحاربون البيلوبونيسيين"¹²³. وبذلك استبعد الفكرة القائلة بأن تحالف الأثينيين مع الكورسيريين كان هو السبب الأول في إشعال فتيل الحرب. وفي نفس الوقت قلل من شأن مرسوم ميغارا (الذي أصدره بيريكليس) باعتباره من أسباب قيامها، وهي فكرة كانت شائعة لدى عدد من المؤلفين. فقد ذكرها أريستوفان (Aristophane) في كثير من مسرحياته¹²⁴ ليأخذها عنه الخطيب أندوسيد (Andocide)¹²⁵ ثم إيشين (Eschine)¹²⁶، كما نجدها عند ديودور الصقلي (Diodore)¹²⁷ وبلوتارك (Plutarque)¹²⁸، ومن بين هؤلاء من اعتبر أن بيريكليس (Périclès) أصدر هذا المرسوم لإعلان حرب حقيقية ضد

¹¹⁹ - نفسه، الكتاب الأول، فقرة، 41، 2.

¹²⁰ - نفسه، فقرة، 42، 2.

¹²¹ - نفسه، فقرة، 32، 1.

¹²² - نفسه، فقرة، 42، 1-2: حيث أشار الكورانتيون بأنه "لا يمكن لأية مصلحة أن تتحقق بدون عدالة"

¹²³ - نفسه، فقرة، 44، 2.

¹²⁴ - Aristophane, Acharniens, 515-539; La paix, 605-614; Les nuées, 302.

¹²⁵ - Andocide, Sur la Paix, 8. étab. et trad. par Dalmeyda (G), Paris, Belles-Lettres, 1930.

¹²⁶ - Eschine, Sur l'Ambassade infidèle, 175, étab. et trad. par Martin (V) et Guy de Budé, Paris, Belles-Lettres, 1927.

¹²⁷ - Diodore de Sicile, Op. Cit, Livre XII, 38, 41.

¹²⁸ - Plutarque, Périclès, 29, 4 و 7 و 30, 3. Vies des illustres, étab. et trad. par Flacelière (R), Chambry (E) et Juneaux (M), CUF, 1957- 1975.

البيلوبونيزيين¹²⁹. فيما تعمد توسيديد (Thucydide) صرف النظر عن ذكر هذا المرسوم¹³⁰، وإن تناوله يكون ذلك بهدف التقليل من شأنه. وقد سجلت المؤرخة (Romilly (J.De في هذا السياق، بأن توسيديد "لم يذكر هذا المرسوم الميغاري إلا عند ذكره لمجموعة من الحوادث الأخرى التي اعتبرها كذرائع معتبرا أن أهميته وهمية ليس إلا"¹³¹.

وقد اتضح موقف توسيديد (Thucydide) هذا عند حديثه عن ورود مجموعة من السفارات الإسبارطية إلى أثينا خلال سنتي 432 و431 ق.م، حيث وجد نفسه مجبرا على الاعتراف بأن مطلب إبطال مفعول المرسوم الميغاري كان شرطا أساسيا عند الإسبارطيين¹³². ولكن، إذا كان قرار الحرب قد اتخذ من طرف إسبارطا، فلن تكون تلك السفارات في نظر توسيديد (Thucydide)¹³³ إلا وسائل للدعاية، فقد أشار إلى أنه "خلال هذه الفترة أرسلت مجموعة سفارات إسبارطية إلى أثينا لعرض مطالب إسبارطا بشكل يمنحها المزيد من الدوافع لشن الحرب في حالة رَفْضِهَا"¹³⁴.

ومع ذلك، فإن نص توسيديد (Thucydide) هذا يدفعنا إلى التساؤل عن المبررات التي اعتمدها الإسبارطيون للدخول في الحرب فيما كانوا قد اتخذوا قرار الحرب من قبل؟ ربما وجدنا الجواب في الوقوف على الحالة التي قد يكون عليها الآثينيون عند تقديمهم بعض التنازلات.

فلتفسير ذلك قدم توسيديد (Thucydide) تحليلا مفصلا عن موضوع إباحة المحرمات وتدنيس المقدسات¹³⁵، والذي وظفه ممثلوا السفارات الذين عرضوا المطالب الإسبارطية الخاصة ببوتيدي (Potidée) وميغارا (Mégare) وإيجينا

¹²⁹ - Aristophane, Paix, 605-614 ; ثم Plutarque, Périclès, 31, 1 و 32, 6.

¹³⁰ - Bodin (L), «Autour du décret mégarien», In Mélanges Littéraires de la Fac. Des Lettres de Clermont- Ferrand, 1910, p. 169-182.

¹³¹ - Romilly (J.De), Thucydide, Livre I, (Belles- Lettres), Introduction, p. 42.

¹³² - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 139، 1، 4-2، وأيضا الفقرة، 144، 2.

¹³³ - نفسه، فقرة، 125، 1.

¹³⁴ - نفسه، فقرة، 126، 1.

¹³⁵ - نفسه، فقرة، 126، 2-139.

(Egine)¹³⁶ كاستفزاز ونوع من الدعاية. بيد أن القضية تحلت ببعض الخصوصية التي تجلت في استعداد معظم الآثينيين لقبول بعض تلك المطالب¹³⁷ التي اعترف بيريكليس (Périclès) نفسه بطابعها المعقول، لكن اعتراضه عليها تمثل في ما تنطوي عليه من تهديدات¹³⁸، مدعيا أن قبولها سيفتح الطريق أمام مطالب أكبر¹³⁹، ولم يتح فشل السفارات الإسبارطية¹⁴⁰، ملك إسبارطا بالتالي، إمكانية التغلب على مؤيدي إعلان حرب آنية¹⁴¹.

لذا، حتى وإن لم تقع تلك الحوادث الصغرى التي حصلت قبيل الإعلان الرسمي للحرب، فإن اندلاع هذه الأخيرة كان أمرا واقعا. وهو ما زكاه توسيديد (Thucydide) بتقديمه سردا للأحداث وضع له عنوانا محددا، "دوافع الحرب"¹⁴²، وبدلا من أن يجعل منها مجرد ذرائع، اعتبرها مَسْبَبًا في وقف مفعول الاتفاقيات¹⁴³.

III- السبب الرئيس في هزيمة أثينا

لقد أقر توسيديد (Thucydide) بحتمية وقوع الحرب البيلوبونيسية لوجود دوافع عامة كانت تدفع بكل من أثينا وإسبارطا إلى الاصطدام، حتى وإن غابت تلك الحوادث الصغرى السابقة لها، إذ اعتبر أن "التفسير الحقيقي والمسكوت عنه، هو أنه كلما تَقَوَّى الآثينيون إلا وتزايد فزع الإسبارطيين مما دفعهم إلى الحرب"¹⁴⁴.

وما يثير الانتباه هو تكرار ذكر هذه الفكرة في مجمل مؤلف توسيديد (Thucydide)، لذا كان من الطبيعي أن تشهد السنوات التي سبقت الحرب توسعا سريعا للإمبراطورية الأثينية. لكن، ومنذ عَقْدِ "سلم الثلاثين سنة" الذي

¹³⁶ - نفسه، فقرة، 139، 1.

¹³⁷ - نفسه، فقرة، 139، 4.

¹³⁸ - نفسه، فقرة، 140، 2، وأيضا فقرة، 141، 1.

¹³⁹ - نفسه، فقرة، 140، 4-5.

¹⁴⁰ - نفسه، فقرة، 82، 1-3؛ يتوافق إرسال هذه السفارات مع سياسة الملك الإسبارطي أرشيداموس.

¹⁴¹ - Sainte Croix (G. E. M. de), op. cit, p. 124-151.

¹⁴² - توسيديد، الكتاب الأول، فقرات من 24 حتى 66.

¹⁴³ - نفسه، فقرة، 23، 6.

¹⁴⁴ - نفسه، فقرة، 23، 6.

تم إبرامه بين آثينا وإسبارطا في سنة 445 ق.م ، لم تشهد هذه الإمبراطورية أي توسع يذكر، فنزعتهما التوسعية التي أثارت الحرب البيلوبونيسية الأولى (بين سنتي 459 و446 ق.م) وأدت إلى استئناف الصراع في سنة 413 ق.م، كانت تفوق تلك التي أدت إلى اندلاع الحرب سنة 431 ق.م، ويجد تفسير توسديد (Thucydide) تبريره بالتالي، من خلال منظوره البعيد المدى للإمبريالية الآثينية. إذ على الرغم من حذر بيريكليس (Périclès) الظاهر في نهج سياسة توسعية أكثر اندفاعاً¹⁴⁵، إلا أنه مع ذلك ظل يمارس سياسة إمبريالية حقيقية، فسرعان ما استأنفت آثينا في عهده سياستها تلك، والتي كانت ترمي من ورائها إلى تمكين قوتها البحرية لترسيخ نفوذها وضمان تفوقها في العالم الإغريقي، وهو ما دفع إسبارطا للوقوف في وجهها بإعلان الحرب.

وبناء عليه، فإن حرب البيلوبونيز لم تترتب على قرارات الآثينيين ولا الكورانتينين أو الإسبارطين، ولكنها كانت نتيجة منطقية للنهج الإمبريالي الآثيني¹⁴⁶. لذا لا يمكن مؤاخذه بيريكليس (Périclès) عن أي من تصرفاته بشأن الحرب أو أي إجماع للجمعية الشعبية حول ذلك، فقد اختلطت المسؤوليات التي يرجع بعضها إلى الماضي. فالحرب التي دمرت آثينا لم تندلع بسبب أحداث سنتي 433 و432 ق.م، ولكنها نتجت عن تطور تراكم عبر عشرات السنين منذ تأسيس حلف ديلوس (Ligue de Délos) في سنة 478 ق.م¹⁴⁷، فقد وجدت آثينا نفسها مجبرة بسبب خوفها وحرصها على أمنها، على استعمال القوة للحفاظ على إمبراطوريتها. وبالفعل، إن ما أثار انتقادات الإغريق اتجاه حلف ديلوس هو ما طرأ عليه من تحولات وما عرفه من تجاوزات غير محتملة، فقد تحول من هيمنة مقبولة من طرف الحلفاء إلى إمبراطورية قائمة على استعمال القوة، مما أدى إلى تضيق مجال حرية هؤلاء، وهو ما أثار كراهيتهم ضد آثينا وجردّها من مصداقيتها. وقد اعتبر العديد من المؤلفين هذه الحالة من بين أسباب هزيمتها¹⁴⁸، بل أضحت من المواضيع التي

¹⁴⁵ - لم تتدخل آثينا في كورسير إلا بعد تردد كبير.

¹⁴⁶ - Romilly (J.De), «La notion du nécessité dans l'histoire de Thucydide», Mélanges Raymond Aron (1971), p. 109-128.

¹⁴⁷ - أي إلى عهد «Péntékontaétie»، الرجوع إلى توسديد، الكتاب الأول، فقرات من 89 حتى 118.

¹⁴⁸ - Isocrate, *La paix*, 78, 105.

تناولها كل من أراد التذكير بالكيفية التي حولت بها أثينا حلفائها القداماء في الحروب الميدية إلى أتباع لها¹⁴⁹.

ورغم الصورة العنيفة التي أضحت عليها الإمبريالية الأثينية، فإن توسيديد (Thucydide) أوجد مع ذلك مخرجاً للأثينيين من خلال نظريته العامة للإمبريالية والتي اعتبرت الموضوع الرئيس في مؤلفه. فلم تنحصر عنده هذه النظرية فقط في هيمنة دولة على دول أخرى، بل حتى في الرغبة في الهيمنة¹⁵⁰ وتوسيع مجال النفوذ¹⁵¹. أما بالنسبة لحالة أثينا، في نظره، فكلما اتسعت إمبراطوريتها كلما احتدت النزعة الإمبريالية للدولة التي تجسدت في هيمنتها على مجال امتد من صقلية غرباً حتى مشارف البحر الأسود (Pont-Euxin) شرقاً، وبعبارة أخرى: "كلما وسعت أثينا مجال إمبراطوريتها كلما ازدادت رغبتها في التوسع أكثر وتقوت سياستها الإمبريالية"¹⁵²، مما هيأ ظروف انفصال حلفائها عنها وقادها إلى فتح جبهات حرب متعددة ضدها.

وهكذا تبدو السياسة التوسعية بالنسبة للدولة الأثينية وكأنها قانون طبيعي، وما أن الأثينيين كانوا يدعون احترامهم للطبيعة البشرية بفرض هيمنتهم على الآخرين، وما أن هيمنة الأقوى كانت بالنسبة إليهم ضرورة طبيعية تُفرض على البشر كما على الآلهة¹⁵³ وتتماشى مع المعتقدات وأيضاً مع تصرفات البشر¹⁵⁴، فقد اعتبروا هيمنتهم تلك بمثابة تطبيق لناموس طبيعي. وفي هذا السياق لا توجد في نظر توسيديد درجة وسطى بين الهيمنة والخضوع، فإما أن تكون سيدياً وإما أن تكون تابعاً. وهذه النظرة هي التي تفسر استمرار الحروب بين المدن الدويلات الإغريقية، وهو حال بلاد الإغريق خلال القرن 5 ق.م، حيث أصبح

¹⁴⁹ - Aristote, *Rhétorique* Livre II, 2, 1396a, étab. et trad. par Dufour (M), Paris, éd. Belles- Lettres, 1967

¹⁵⁰ - توسيديد، الكتاب الرابع، فقرة، 61، 5: «oi arxein bouloumenoi»

¹⁵¹ - توسيديد، نفسه، فقرة، 17، 4. ثم إيزوقراط، حول السلم، فقرة، 23.

¹⁵² - Romilly (J. De), *Thucydide et l'impérialisme athénien*, Paris, Les Belles- Lettres, 1947, p. 268- 271.

¹⁵³ - توسيديد، الكتاب الخامس، فقرة، 105، 2.

¹⁵⁴ - توسيديد، نفسه، فقرة، 105، 1.

إخضاع الآخر وسيلة ناجعة للتخلص من الاستعباد¹⁵⁵، فكلما وسعت المدينة مجال هيمنتها كلما بدت حرة¹⁵⁶، لذلك أصبحت فكرة دمج الديمقراطية والهيمنة للدعاية من أجل الحرية، من بين الأفكار الأساسية في عالم إغريقي مجزأ تقاسمته عشرات الكيانات السياسية المستقلة.

وبما أن من أركان مدينة الدولة الإغريقية هي السيادة، فإن هذه السيادة كانت تَفْرُضُ على كل مدينة أن تكون إمبريالية بطبيعتها، وإمبرياليته هاته كانت تمثل بالنسبة لها محركاً وهدفاً في نفس الآن. فبالنسبة لحالة آثينا، وكما أشار توسيديد على لسان بيريكليس، بما أن النظام الديمقراطي كان يسمح بتوظيف قدرات ومؤهلات كل فرد، ويسمح بمشاركة كل مواطن في السلطة السياسية، فإن كل الآثينيين كانوا معنيين بالظاهرة الإمبريالية التي لم تزد إلا قوة واكتساحاً¹⁵⁷، فظهرت هذه الإمبريالية وكأنها قانون طبيعي يمثل جوهر بنية دولة المدينة، لدرجة أن الآثينيين لم يعودوا يفكرون في وضع حد لطموحاتهم التوسعية، وحتى إذا أرادوا ذلك فقد كانوا عاجزين عن تحقيقه¹⁵⁸.

وقد اعتبر توسيديد (Thucydide) السياسة التوسعية لآثينا بمثابة التفسير الحقيقي للحرب البيلوبونيسية¹⁵⁹، لأنها دفعت إلى التطرف في استعمال القوة والرغبة الملحة في الغزو¹⁶⁰، وأصبحت آثينا بذلك مجبرة على التوسع وإلا فإن إمبراطوريتها ستكون مهددة بالتقهقر، مما أضاف إلى عداء حلفائها خوف المدن الأجنبية التي أصبحت تشعر بالتهديد وتتهياً لكل الاحتمالات أمام زحفها، فأجبرت آثينا على التوسع المستمر من خلال خوض حروب دائمة، وكذا على نهج سياسة كبح جماح الآخر، كي يسهل عليها التوسع أكثر فأكثر، مما سيؤدي بها إلى

¹⁵⁵ - توسيديد، الكتاب الخامس، فقرة، 69، 1: حيث دمج المؤرخ بين الحرية والهيمنة على الآخر، الرجوع إلى مؤلف:

Romilly (J. De), *Thucydide et l'impérialisme athénien*, p. 73-75.

¹⁵⁶ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 89، 6.

¹⁵⁷ - توسيديد، الكتاب الثاني، فقرة، 37، 1.

¹⁵⁸ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 18، 3: وردت الفكرة ضمن خطاب ألسبياد قبل الحملة على صقلية.

¹⁵⁹ - توسيديد، الكتاب الأول، فقرة، 23، 6.

¹⁶⁰ - توسيديد، الكتاب السادس، فقرة، 18، 2-5: أشار توسيديد إلى الحملة الآثينية ضد صقلية.

مواجهة تمردات وصراعات، وبالتالي كان يكفي حدوث واقعة سيئة وغير منتظرة مثل وباء الطاعون (سنة 429 ق.م) ثم فشل الحملة البحرية الموجهة ضد صقلية (سنة 415 ق.م)، كي ينكسر توازنها القديم وتتقهقر قوتها الحربية.

ومع ذلك، لا توحى هذه التطورات بأن أثينا كانت ستخسر الحرب البيلوبونيسية، وإلا سيكون بيريكليس (Périclès) على خطأ حين قرر إعلان الحرب ضد إسبارطا، لأنه كان يعلن على الدوام أن على الأثينيين أن ينتصروا في الحرب¹⁶¹. لكن حتى وإن لم يُعجل تطور الإمبراطورية الأثينية بحدوث موقعة أيكوس بوطاموس (Aigos-Potamos)، فإن أثينا كما هو حال كل إمبراطورية، كانت ستواجه سلسلة من الحروب والثورات فتنهار نهائياً، كما ذهب توسيديد إلى ذلك¹⁶².

وقد مكن مفهوم حتمية انهيار الإمبراطورية والذي توجَّح منظور توسيديد (Thucydide) حول بنية "الإمبراطورية" من تبرئة جانب الأثينيين، مادامت الإمبراطورية الأثينية لا يمكنها أن تسلك في تطورها إلا نفس النهج لتنتهي، مهما طال أمدها، إلى هزيمة نهائية وكأنها خاضعة لقانون طبيعي له بداية وأوج ثم نهاية، ولم يكن توسيديد (Thucydide) بهذا المنظور يبرر السياسة التوسعية للإمبراطورية الأثينية بل كان يجد لها تفسيراً لتبرئة الأثينيين من أي إحساس بالمسؤولية.

خاتمة

لقد عرف الأثينيون كيف يتكيفون مع الآثار الكارثية لهزيمتهم في الحرب البيلوبونيسية، خاصة وأنهم كانوا ينتظرون الأسوأ ومستعدون لمنع حدوثه بما تبقى لديهم من إمكانيات. كما عبَّروا عن ارتياحهم من جهة حين عدل الإسبارطيون عن تدمير مدينتهم أثينا، ومن جهة أخرى لما استطاعوا في ظرف وجيز إعادة بناء نظامهم القديم. غير أنه وإن أفلتوا من مصير الإبادة أو من النفي، فقد زعزعتهم صدمة الهزيمة حتى أنهم عجزوا في البداية عن تبرئة

¹⁶¹ - Romilly (J. De), «L'optimisme de Thucydide et le jugement de l'historien sur Périclès», Revue des études grecques 78 (1965), p. 557- 575.

¹⁶² - توسيديد، الحرب البيلوبونيسية، الكتاب الثاني، فقرة، 64، 3.

ساحتهم مكتفين فقط بالتملص من مسؤولياتهم.

فقد تأكد لهم بأن الهزيمة التي أدت إلى انهيار قوتهم كانت ناتجة عن أخطاء بعضهم، منهم الخونة الذين باعوا ذمتهم للخصوم، ومنهم رجال السياسة الذين فضلوا تحقيق طموحاتهم الشخصية على حساب خدمة المصالح العليا للدولة. وحتى إن أقر الآثنيون بالعواقب الوخيمة لأحقادهم وصراعاتهم الجانبية، فقد مكنهم مفهوم "المأساة" الذي ترتب على الهزيمة من التظليل على المسؤوليات بتحويل المذنبين إلى ضحايا. لكن إذا كانوا يرفضون الاقتناع بفكرة أن الهزيمة هي نتيجة منطقية لنهج سياسي معين، فإنه لم يكن بوسعهم إنكار أن الحرب والإمبريالية وما ميزهما من تجاوز وعنف، هما نتيجتان حتميتان لما عرفه "حلف ديلوس" من تحولات غَيَّبَتْ سيادة المدن الحليفة لفائدة الدولة المهيمنة. وقد أثبتت مجهودات الآثنيين وتعدد المخارج التي اختلقوها لتبرئة ساحتهم من مسؤولية الهزيمة النهائية، محدودية فعاليتها، كما أن التحول في ميزان القوة لصالح المعسكر الخصم دفع بالآثنيين إلى التخلي عن إيديولوجية القوة التي ظلت تدعم نشاطهم الإمبريالي وتتحكم في تصرفاتهم وقراراتهم طيلة القرن 5 ق.م.